ذکر اللہ تعالیٰ

ذكر الله تعالى

الآيات القرآنية المنثورة في كتاب الله عز وجل لآلىء مشرقة تنير الدرب للنفس لتستجلب الفيض والرحمة والنور الإلهي. والقرآن كله بما فيه من أمر ونهي وذكر وتسبيح لله عز وجل هو المصدر الذي تقبس النفس منه الأنوار بذكرها لمصدر النور وخالقه، لتتجنب الغفلة، والالتصاق بالمادية الجامدة المحطمة لإرادة التسامي والرفعة والإيثار والمحبة. وإذا قرأنا كتاب الله كله وجمعنا آيات الذكر والتسبيح والحمد لله فإننا نحصل على استقراء متكامل بأن الآيات المكية والسور المكية احتوت تفصيل العقيدة، والسمو لفهم التصور الإسلامي لله عز وجل الفهم الكامل، مع التنزيه المطلق الذي لا تشوبه شائبة ولكي تتكامل نظرة المسلم لله عز وجل، فإننا إزاء هذا نجد أن الآيات المكية احتوت استدلالاً على التركيز العقائدي للتسبيح دوماً والحمد لموجد الكائنات وسنبين بالتفصيل هذا الاستقراء الكامل والجديد للقرآن كله.

١ـ قال الله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ من سورة الأعلى ١.

١ـ قال الله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ من سورة الحاقة ٥٢ وهي مكية.

٣ـ قال الله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ من سورة الطور ٤٩ وهي مكية.

٤ـ قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ من سورة قٓ ٤٠ وهي مكية.

٥ـ قال الله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ من سورة قٓ ٣٩ وهي مكية.

٦ـ قال الله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ من سورة فصلت ٣٨ وهي مكية.

٧ـ قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من سورة الزمر ٧٥ وهي مكية.

٨ـ قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من سورة الصافات ١٥٩ وهي مكية، ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من سورة الصافات ١٨٠ وهي مكية.

٩ـ قال الله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ من سورة يس ٨٣ وهي مكية.

١٠ـ قال الله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ من سورة الفرقان ٥٨ وهي مكية.

١١ـ قال الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ من سورة الأنبياء ٢٠ وهي مكية.

١٢ـ قال الله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من سورة الأنبياء ٢٢ وهي مكية.

١٣ـ قال الله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآئِ الَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ من سورة طه ١٣٠ وهي مكية.

١٤ـ قال الله تعالى: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ من سورة طه ٣٣ وهي مكية.

١٥ـ قال الله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّٰجِدِينَ﴾ من سورة الحجر ٩٨ وهي مكية.

١٦ـ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ من سورة الأعراف ٢٠٦ وهي مكية.

١٧ـ قال الله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ من سورة الواقعة ٧٤ وهي مكية.

وإننا نجد أن هذه الآيات الواردة كلها في سور مكية تدلنا دلالة واضحة على أن بداية الإيمان مقرونة بالتنزيه الكامل والتسبيح المقرون مع الحمد، ولا نجد التسبيح بهذا الشكل في السور المدنية، وإننا نستنتج تأكيد القرآن الكريم لهذا الأمر، وهو كثرة التسبيح لتهيئة النفس وإعدادها إعداداً اعتقادياً خالصاً من كل شوائب العقيدة الجاهلية، ولكي يصل المسلم إلى تنزيه الله في كل أقواله وأفعاله وأوامره، فيحصل الإيمان المطلق، وهذا منطلق الطريق إلى الله عز وجل، ثم بعد ذلك تبدأ الصلة بالله عز وجل، والتأكيد في الآيات المدنية الموجودة في كتاب الله على ذكر اسم الله، وذكر الله تعالى مقرونة مع الخشية والإخبات والإنابة والتوبة، ثم تليها آيات التركيز على ذكر الله في النفس ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

١ـ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

٢ـ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

٣ـ قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤].

٤ـ قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ من سورة الإنسان ٢٥ وهي مدنية.

٥ـ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ من سورة المنافقون ٩ وهي مدنية.

٦ـ قال الله تعالى: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ من سورة الجمعة ٩ وهي مدنية.

٧ـ قال الله تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ من سورة المجادلة ١٩ وهي مدنية.

٨ـ قال الله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ من سورة الحديد ١٦ وهي مدنية.

٩ـ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ من سورة الأحزاب ٤١ ـ ٤٢ وهي مدنية.

١٠ـ قال الله تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ من سورة الأحزاب ٣٥ وهي مدنية.

١١ـ قال الله تعالى: ﴿.. لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ من سورة الأحزاب ٢١ وهي مدنية.

١٢ـ قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ من سورة النور ٣٧ وهي مدنية.

١٣ـ قال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ من سورة النور ٣٦ وهي مدنية.

١٤ـ قال الله تعالى: ﴿وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ من سورة الحج ٤٢ وهي مدنية.

١٥ـ قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ من سورة الحج ٣٥ وهي مدنية.

١٦ـ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ من سورة الأنفال ٢ وهي مدنية.

١٧ـ قال الله تعالى: ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ من سورة الحج ٣٤ وهي مدنية.

١٨ـ قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ من سورة الأنفال ٤٥ وهي مدنية.

١٩ـ قال الله تعالى: ﴿. . . . وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ من سورة النساء ١٤٢ وهي مدنية.

٢٠ـ قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ من سورة آل عمران ١٩١ وهي مدنية.

٢١ـ قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ من سورة آل عمران ١٣٥ وهي مدنية.

٢٢ـ قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ من سورة آل عمران ٤١ وهي مدنية.

٢٣ـ قال الله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾، فاذكروا الله عند المشعر الحرام، واذكروه كما هداكم، فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً... واذكروا الله في أيام معدودات﴾ من سورة البقرة ١٩٨ وهي مدنية.

٢٤ـ قال الله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ من سورة البقرة ١٥٢ وهي مدنية.

إننا إزاء هذه الأوامر المتكررة لكل مؤمن بالإكثار من ذكر الله عز وجل لنجد أن الدواء الناجع لمرض المسلمين العضال في ضياعهم، وزوال شوكتهم، واضمحلالهم هو ذكر الله عز وجل، فذكر الله تعالى قوة روحية، وطهارة نفسية، وخلق يتسامى عن الضعف، وارتباط بالقوة العظمى وشعور بالتعالي عن كل نقيصة.

فالمسلم الذاكر هو إنسان تجمعت كل طاقاته لتعطي إنتاجاً رائداً في كل شيء مقروناً بالإخلاص والصدق في العمل، لأنه يشعر بأن الله يراقبه في كل صغيرة وكبيرة فيخلص العمل، ويصدق النية، ويضحي ليري الله عمله من الشعور الذي يغمره بمراقبة الله الدائمة له. فذكر الله هو المرتبة الأولى في الإيمان، وقد وصف الله تعالى المنافقين بأنهم لا يذكرون الله إلا قليلاً، ثم نجد في ثنايا الآيات دعوة لمن تلوثت روحه بمعصية أو ظلم، أن يبادر إلى ذكر الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾[1]، فالذكر هو الذي يزيل الران الذي يتربع على القلب

---

(١) سورة آل عمران: ١٣٥.

حسب قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1] وكما قال الرسول ﷺ: «إذا أذنب العبد ذنباً نكتت في قلبه نكتة سوداء»[2]، فذكر الله هو النور الذي يزيل هذا الران وهذه النكتة السوداء، وإذا داوم العبد على ذكر الله كثيراً، وجِلَ القلب وأناب وأخبت وطهر وسما في المعارف والكشف والإلهام والأنوار والتجليات حتى يغمره النور فيصبح قلباً سليماً. روى الشيخان وغيرهما حديثاً مرفوعاً قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق (الفضة) وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فيضربوا وجوهكم وتضربوا وجوههم» قالوا: بلى يارسول الله، قال: «ذكر الله»[3].

وروى البخاري مرفوعاً: «إن لله ملائكة يطوفون بالناس يلتمسون أهل الذكر فإن وجدوا قوماً يذكرون الله عز وجل تنادوا؛ هلموا إلى بغيتكم فيحفونهم بأجنحتهم تكريماً لهم»[4].

فالذكر هو جوهر الرياضات الروحية العملية لتجميع الطاقات الروحية في بوتقة واحدة، ضمن بؤرة القلب التي هي مشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، نور على نور.

فذكر الله فيه طمأنينة للروح ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[5]، وقيل: إذا سكن قلب العبد إلى مولاه

---

(١) سورة المطففين: ١٤.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان حديث ٢٣١، والترمذي ومالك في الموطأ وأحمد في مسنده.

(٣) رواه البخاري ومسلم، الرسالة القشيرية ص ١٧٢.

(٤) رواه البخاري في كتاب العلم.

(٥) سورة الرعد: ٢٨.

واطمأن إليه قويت حال العبد، فإذا قويت حاله آنس اللهُ العبدَ فأمده بالسعادة ومنحه الاطمئنان الخالص. وسئل ابن عطاء رحمه الله تعالى ما يفعل الذكر بالسرائر ؟ فقال: «ذكر الله تعالى، إذا ورد على السرائر بإشراقه أزال البشرية في الحقيقة برعوناتها» وقال سهل: (ليس كل من ادعى الذكر فهو ذاكر) وسئل عن الذكر فقال: (تحقيق العلم بأن الله تعالى مشاهدك، فتراه قريباً منك، وتستحي منه، ثم تؤثره على نفسك وعلى أحوالك كلها). ولقد جرى حوار بيني وبين سلفي حاقد، فقلت له: ما هذه الحرب التي تشنّها على التربية الروحية التي يدافع عنها الصوفيون ؟ قال: التصوف انحراف عن الشريعة، وجاء بأمور جديدة لم تكن في كتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ.

قلت له: الصوفية نوعان «صوفية شرعية» وهي كما سماها شيخكم الجليل ابن تيمية ودافع عن أصحابها، وقال في مواجيدهم، وقسم الفناء إلى أنواع، وتكلم في المحبة وبحث في الذكر والسلوك، فماذا تقول بابن تيمية.

قال السلفي: لا شك بكلامه فهو عالم جليل في الأصول والشريعة.

قلت له: إن أهم شيء في الصوفية والتربية الروحية هو ذكر الله عز وجل، فماذا تقول في ذكر الله تعالى ؟ قال السلفي: ذكر الله تعالى بدعة لأن الرسول ﷺ لم يكن يذكر هكذا وإنما جاء في الأثر: (الاستغفار سبحان الله، الحمد لله، لا إله إلا الله، الله أكبر).

قلت له: هذه أنواع من الذكر لا جدال فيها فبعضها دبر كل صلاة، وبعضها عند الصبح، وبعضها عند المساء، وبعضها عند النوم، وهناك أدعية مأثورة عند دخول المسجد وعند الخروج منه، وأدعية عند رؤية الهلال، وغير ذلك.

ولكن ماذا تقول في قول الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا

وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾[1]، أليست هذه آية ؟ أليس فيها فعل أمر ؟ أما يجب علينا مع مجموعة آيات الذكر الكثيرة أن نتفحص مراد الله من هذه الأوامر ؟ قال السلفي: إن هذه الآية تدل على الذكر الذي فعله الرسول ﷺ من حمد وتسبيح وتكبير.

قلت له: أليس قول الله تعالى: ﴿وسبح بحمد ربك﴾ تختلف عن ﴿واذكر ربك﴾ ؟ ألا يعني ذكر الرب عز وجل أن تتذكر الله بجلاله وعظمته وكبريائه وآلائه في أعماق النفس وهي متوجهة إلى الله ذاكرة له، متذكرة لثوابه وعقابه ؟

ألا تجد آيات كثيرة فيها ذكر اسم الله، وما هو اسم الله ؟ أليس هو: الله ؟

قال السلفي: علينا أن نتقيد بما فعله النَّبي ﷺ، وهل ذكر (الله، الله) فعله النَّبي ﷺ ؟

قلت له: أما كان يتفكر بالله وبصفاته وآلائه وعظمته وكبريائه وجلاله ؟

قال السلفي: هذا التفكر عبادة بالنص ولا شك فيه.

قلت له: عندما نجلس نتفكر بالله تعالى ونذكر اسمه ونذكره في أنفسنا نستشعر عظمته وكأنه معنا وكأنه يرانا، ومطلع علينا ومراقب لأفعالنا وأقوالنا، أليس هذا من الشريعة ؟ وهل فيه تعارض مع النصوص القطعية ؟ أو هو تنفيذ وعمل بالشريعة، بل هو تحقيق لأسمى غايات المقاصد الشرعية، فعندما يصل المسلم إلى القول « إذا انكشف الغطاء لم أزدد يقيناً » فإنه قد وصل إلى اليقين الفعلي واليقين الروحي، وهذه منزلة الإحسان.

---

(١) سورة الأعراف: ٢٠٥.

قال السلفي: لقد اتفقنا على ذكر الله وتذكر الله والتفكر بالله، ولكن بشرط واحد وهو ما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام وثبت بالنص، ولا نريد بدعة في العبادة توصلنا إلى عمل لم يعمله الرسول عليه الصلاة والسلام.

قلت له: إنني أذكر كلمة الجنيد رحمه الله قال: (الطريق إلى الله مسدود إلا على من اقتفى آثار الرسول ﷺ).

قال السلفي: هناك طرق صوفية مختلفة منها من يذكر قياماً، ومنها من يذكر مع الدف والرقص، ومن الطرق من يسبح عدداً أكثر من المرات التي ذكرها الرسول ﷺ.

قلت له: إن الذين يذكرون الله آناء الليل وأطراف النهار خير من الذين يضيعون أوقاتهم بسماع ما يكرهه الله، وفي رؤية ما يحرمه الله، وإذا زاد عدد التسبيح والحمد فهذا من النوافل وهي زيادات كما لو صلى في الليل عشرين ركعة، وعليك أن تتوسع في فكرك، وتنظر إلى واقع الصراع الفكري فلا يتحطم هذا التيار الإلحادي الكبير إلا بعقيدة إسلامية روحانية رفيعة، ثم أردفت قائلاً: إننا نريد تربية روحانية قرآنية نبوية، محاطة بسياج الكتاب والسنة، وكل ما شذ عن الكتاب والسنة فعلينا نبذه والبعد عنه؛ لأنه ليس تربية قرآنية؛ ولابد لك من فهم هذه الملاحظة الهامة في ضرورة السلوك التربوي وهي أن الفقهاء والأصوليين واللغويين قد اعتمدوا على الاجتهاد لتحقيق علمهم واستنبطوا الآراء من طريق الرأي فيما لم يجدوا فيه نصاً وإن علماء التربية الروحية السلف الصالح من الصوفيين الشرعيين قد أخذوا بالقياس في بعض الأمور لوصول النفس إلى المجاهدة ثم المراقبة ثم الرضا؛ فوضعوا منهجاً تربوياً فيه الاعتكاف في المسجد وسموه (الخلوة) وذلك في شهر رمضان وأوائل ذي الحجة، وذلك لمعالجة المرضى النفسيين الذين

أصابهم الخلل في تمثل الإسلام العملي قولاً وعقيدة وسلوكاً.

قال السلفي وهو في حيرة: أنا مستعد للنقاش في أي يوم تشاء، وهذا بيتي في مكان كذا، لأن النصوص التي أملكها ضد التصوف في البيت ولم أحفظها لأجري معك النقاش، ثم ولى وانصرف تاركاً المكان ولم ينبس بكلمة واحدة.

وبعد هذا النقاش الطويل أعود لأقول: ماذا يضركم أيها المتنطعون لحماية الإسلام، أيها الأوصياء على العقيدة، أيها المتفيقهون، ماذا يضركم إذا جلس العبد ساعة من نهار كل يوم وذكر الله في الخفية ؟ وذكر اسم ربه مردداً: الله الله، مردداً إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي وذلك في ورد بعد صلاة الصبح: يبدأ بالفاتحة ويثني بقراءة ﴿قل هو الله أحد﴾، ثم يصلي على النَّبي ﷺ وبعدها يقرأ سورة الانشراح ثم يشعر بالارتباط بالمؤمنين الذين يحبهم ويحبونه وعلى رأسهم الشيخ المربي، ثم يبدأ بذكر الله تعالى خالياً قلبه من كل شوائب الدنيا وأدران الحياة. أليس في هذا العمل تجميع للنفس الشاردة لتلتقي بربها ؟ أما قرأت قول الله تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم﴾ ؟ أما اطلعت على الحديث القدسي الذي يقول الله تعالى فيه: «أنا جليس من ذكرني» ؟ وقد أكد ذلك في كتابه العزيز قوله تعالى: ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾ وأكد الويل والثبور لمن قسى قلبه فقال: ﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[1]، أليس في هذه الآية شاهد كبير على تأكيد الله عز وجل أهمية الذكر القلبي المتعمق بالذاكرة، المتأصل بالتخيل، المستجمع للنفس، ليجمع

---

(١) سورة الكهف: ٢٨.

جذور أهوائها في ذكر الله، ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره، ومِنْ تذكُّره. وليس المراد بالذكر الذكر اللساني المجرد، وإنما المراد الأعظم فيه الفكر والعبرة والذكرى، ثم الذكر بالقلب، ثم الذكر باللسان والقلب معاً.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[1] فماذا تقول يا أخي في هذه الآية ؟ فإما أن تكون ذاكراً أو تكون غافلاً، ولا يوجد منزلة وسط بينهما.

وجاء في الأثر عن البيهقي: خير الذكر الخفي وخير الرزق ما يكفي، وقال: الذكر الذي لا تسمعه الحفظة يزيد على الذكر الذي تسمعه الحفظة سبعين ضعفاً[2].

وجاء في الصحاح عن النَّبي ﷺ قال:

«قال الله تعالى: أنا عند حسن ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من مَلَئِه»[3].

وإن من أروع ما يستشهد به في هذا الباب ما جاء في كتاب الوابل الصيب للعلامة ابن القيم رائد الفكر السلفي بعد ابن تيمية، فقد أفرد في كتابه بحثاً كاملاً عن الذكر، وقال الرسول ﷺ: «وآمركم أن تذكروا الله تعالى فإن مثل ذلك مثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى إذا أتى إلى حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله» وأتبع شرح ذلك قائلاً: ولا يدخل عليه العدو إلا من باب

---

(١) سورة الزخرف: ٣٦.
(٢) رواه البيهقي.
(٣) رواه البخاري وغيره.

الغفلة، فهو يرصده، فإذا غفل وثب عليه وافترسه، وإذا ذكر الله تعالى انخنس عدو الله تعالى، وتابع قول ابن عباس: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله تعالى خنس.

قال رسول الله ﷺ: «ما عمل آدمي قط أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل» وما جاء في حديث رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده»[1]. وفيما رواه الترمذي عن عبد الله بن بشر أن رجلاً قال: يارسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علي وأنا قد كبرت فأخبرني بشيء أتشبث به، قال: «لايزال لسانك رطباً بذكر الله تعالى»[2].

وفي صحيح البخاري عن أبي موسى عن النَّبي ﷺ قال: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت»[3].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: أنا عند حسن ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً، وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة»[4].

وفي الترمذي عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا» قالوا: يارسول الله، وما رياض الجنة ؟ قال: «حلق الذكر» وذكر عن معاذ رضي الله عنه يرفعه قال: «ليس تحسر أهل الجنة إلا

---

(١) رواه مسلم في صحيحه.
(٢) رواه الترمذي وصححه.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه البخاري ومسلم.

على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله عز وجل فيها»[1].

قال ابن القيم ص ٣١٩ في كتاب الوابل الصيب:

(إذا أراد العبد أن يقتدي برجل فلينظر هل هو من أهل الذكر أو من الغافلين) ؟

وقال: فوائد الذكر كثيرة تزيد عن مائة فائدة بينها في كتابه الوابل الصيب ونعدد منها:

١ـ يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره.

٢ـ يرضي الرحمن عز وجل.

٣ـ يزيل الهم والغم عن القلب.

٤ـ يقوي القلب ويجلب له الفرح والسرور والبسط.

٥ـ يورث الذاكر المحبة التي هي روح الإسلام وقطب رحى الدين.

٦ـ يورث المراقبة حتى يدخله في باب الإحسان فيعبد الله كأنه يراه، ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان، كما لا سبيل للقاعد من الوصول إلى البيت.

٧ـ يورثه الإنابة والقرب ويفتح له باباً من أبواب المعرفة.

٨ـ يورثه الهيبة لربه وإجلاله وحياة القلب، وسمع ابن تيمية قدس الله تعالى روحه يقول: الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء ؟ وقال ابن القيم: حضرت مع ابن تيمية مرة فصلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى انتصاف النهار، ثم التفت إلي وقال: هذه غدوتي.

---

(١) رواه الترمذي وصححه.

٩ـ يورث جلاء القلب من صداه ويحط الخطايا ويزيل الوحشة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى.

١٠ـ الاشتغال بالذكر سبب لعطاء الله للذاكر أفضل ما يعطي السائلين. ففي الحديث عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال سبحانه وتعالى: من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين».

١١ـ الذكر يجمع ما تفرق على العبد من قلبه وإرادته وهمومه وعزومه.

١٢ـ الذكر شجرة تثمر المعارف والأحوال التي شمر إليها السالكون، فالذكر يثمر المقامات كلها من اليقظة إلى التوحيد؛ وهو أصل كل مقام وقاعدته التي يبنى ذلك المقام عليها.

١٣ـ إن الذاكر قريب من مذكوره، ومذكوره معه، وهذه المعية معية خاصة؛ وهي معية القرب والولاية والمحبة والنصرة والتوفيق كقوله تعالى: ﴿إن الله مع الذين اتقوا﴾ ﴿والله مع الصابرين﴾ ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾. وقال ابن القيم عن ذكر القلب[1] من كتاب الوابل الصيب:

(وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده، لأن ذكر القلب يثمر المعرفة ويهيج المحبة ويثير الحياء، ويبعث على المخافة ويدعو إلى المراقبة ويروع عن التقصير في الطاعات والتهاون في المعاصي والسيئات، وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئاً من هذه الآثار وإن أثمر شيئاً منها فثمرة ضعيفة، ولقد دافع الشيخ ابن تيمية عن الشبلي الذي كان مغلوباً في حاله الذي كان يردد فيها (الله.. الله) إذ كان يخشى إذا ما نطق بالشهادة أن يموت بين النفي والإثبات)[2].

---

(١) ص ٣٨٦.

(٢) السلوك ص ٥٥٧ ابن تيمية.

وإن دليل القائلين بالاسم المفرد (الله . . . الله) قول الله تعالى: ﴿قل الله ثم ذرهم﴾ ، ولكن احتفاظ الشيخ ابن تيمية من قول: (الله . . . الله) الاسم المفرد هو العدول إلى كلمات أخرى وهي: (هو) وذلك لأن (هو) كلمة غامضة.

ويختم حديثه عن الذكر فيقول: (إن كل ما تكلم به اللسان، وتصوره القلب مما يقرب من تعلم علم وتعليمه، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، فهو من ذكر الله تعالى)[1].

وإنني لأختم حديثي عن ذكر الله وبالاسم المفرد الذي ركّز عليه النقشبنديون خاصة فهو مرحلة التفكر بالله، والله اسم الجلالة الأعظم وهو مرحلة تلي مرحلة النفي والإثبات، فعندما يتجاوز الذكر النفي والإثبات إلى اليقين المطلق فهو في حال تذكر للاسم المفرد العظيم الذي يؤمن به إيماناً كاملاً، ويحبه ويعظمه ويردده دائماً فهو أحب الأسماء إليه، وقد غطى جلال هذا الاسم على كل وجوده وقلبه وروحه وعقله وفكره وإحساسه، وبه يفرغ النفس من كل الأهواء، وبالاسم المفرد وبأعماق القلب يدخل النور الإلهي المقدس فتستجمع النفس إرادتها، وتقوى لتكون طائعة لله عز وجل مع سهولة الانقياد لأمر الله والبعد عن معاصيه، فالذكر وسيلة لا غاية بذاتها؛ وهي إعداد النفس لتنفيذ الشريعة وشحنها بالطاقة الروحية الضخمة لتحمل مسؤولية التكليف الصادق المخلص، ولابد للمسلم من تسبيح وحمد كما ورد؛ في الصباح والمساء وعند النوم وبعد كل صلاة، وكلها مأثورة عن النّبي ﷺ:

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النّبي ﷺ قال: «من قال حين

---

(١) السلوك ص ٦١.

يصبح وحين يمسي: سبحان الله وبحمده مئة مرة، لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به، إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه»[1].

وإذا أمسى قال: «أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، رب أسألك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شر هذه الليلة وشر ما بعدها، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، رب أعوذ بك من عذاب النار وعذاب القبر».

ومن الأذكار المأثورة:

جاء في الصحيحين عن النَّبي ﷺ: «إذا استيقظ أحدكم فليقل الحمد لله الذي عافاني في جسدي ورد علي روحي وأذن لي بذكره».

ومن قال في يوم مئة مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، كانت له حرزاً من الشيطان يومه كله. وفي رواية: أتى الله تعالى يوم القيامة ووجهه أشد بياضاً من القمر ليلة البدر. وكما جاء في صحيح البخاري عن النَّبي ﷺ قال: «سيد الاستغفار: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، من قالها حين يمسي فمات من ليلته دخل الجنة، ومن قالها حين يصبح فمات من يومه دخل الجنة».

وقال رسول الله ﷺ: «من قال لا حول ولا قوة إلا بالله مئة مرة في كل يوم لم يصبح فقيراً أبداً».

وإني أستخلص من تجربتي الفردية؛ والتربية الروحيةَ تجربة فردية، أن ما

---

(١) رواه مسلم.

ينطبق على المسلم ربما لا ينطبق تماماً على المسلم الآخر، فذكر الله عز وجل بأشكال عديدة، وبأوضاع مختلفة، وبأوامر كثيرة وعديدة، فالمسلم مأمور بذكر الله تعالى بعد صلاة الفجر كما كان يفعل الصحابة الكرام وكما أمر الرسول ﷺ فقال: «من صلى الصبح في جماعة، ثم جلس يذكر الله حتى تطلع الشمس، كان له أجر حجة وعمرة تامتين تامتين»[1].

وكان يفعل ذلك شيخ السلفيين ابن تيمية قدس الله روحه. ثم إن ذكر الله تعالى يكون بأوراد كان يقولها ويأمر بها رسول الله ﷺ منها: (سبحان الله والحمد لله، لا إله إلا الله، الله أكبر، لا حول ولا قوة إلا بالله، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، سبحان الله العظيم وبحمده، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، ثم الاستغفار، وأستغفر الله العظيم، اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وهو سيد الاستغفار، وقد ذكر فيما سبق بنصه كاملاً، هذا ذكر وتسبيح وحمد وثناء وتمجيد لله عز وجل، ويكون باللسان والقلب مع التعمق بالمعاني الكاملة لكل لفظ ينطق به الذاكر، وهذه الأنواع من الذكر أمر إلهي فيها طهارة للقلب وأنس بالله، وصفاء للروح، وهذا شيء مجرب محسوس، والذكر الخفي والذكر حسب منهج علماء التصوف المقرون بالوضوء والجلوس والتفرغ وإغماض العينين والتوجه إلى الله، كل صباح وكل مساء وبعد كل صلاة وقبل كل صلاة، هو أمر إلهي ونبوي فيه تقوية الإرادة، وتجميع للطاقة النفسية لتستعد استعداداً روحياً لتحقيق أمر ذكر الله المتكرر في كتاب الله لذاته، ثم لتحقيق النتائج التي يحصل عليها الذاكر في ترويض نفسه، وتهيئتها لحمل أمانة التكليف بسهولة ويسر وصدق

---

(١) انظر إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٣/ ٣٧٠، ٥/ ١٢٨، وانظر شرح السنة للبغوي ج ٥، ص ١٠٨.

وإخلاص، فلنعمل على نشر منهج التربية الروحية بالذكر الخفي وذكر اللسان، وذكر القلب، وجميع أشكال الأذكار المأثورة، ولا نغوص في ترهات لا طائل تحتها في بحث هذا الأمر الخطير الذي هو أمر إلهي في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

فليتق الله كل من في قلبه مثقال حبة من إخلاص لدينه وقرآنه وسنة نبيه، لنتخلص من أمراضنا النفسية التي استولت على قلوب المسلمين وأخص بالذكر الملتزمين فكرياً وطقوساً وعبادات، وإن ما آل إليه واقعنا الإسلامي والعربي من ضياع في الأخلاق، واستهتار في القيم، وتمييع لأوامر الإسلام الكلية سببه الكبير ضياع العقيدة في قلوب الجماهير، ولا يرتبط المسلم بعقيدته إذا لم يعش حياة روحية سامية. ومن أين له القوة والاستعداد لترويض نفسه الجامحة، لنقل أوامر الشريعة إلى الواقع، فالصدق والأمانة والتواضع والإحسان والتعاون وحب الخير كلها أخلاق إسلامية لا يتربى عليها المسلم إذا لم تتهيأ نفسه لتمثلها والعمل بها. ولا تتم إلا بالتربية الروحية الصادقة؛ وهي التربية الصوفية الشرعية التي أعطت نماذج كثيرة في المجتمع الإسلامي، وكان هذا الصنف من المسلمين هم قادة السلوك التربوي والأخلاقي في المجتمع الإسلامي على طول الزمان.

فلا تحل أزمتنا إلا تربية روحية قرآنية صادقة؛ لأن أزمتنا أزمة أخلاق وقيم وسلوك، والعلم قد كثر والعمل قد ضعف. فعلم بلا عمل، ومعرفة فكرية بلا سلوك، ودراية واسعة مع قلب مفعم بأنواع من المشاغل التي تخالف تلك المعارف الإسلامية، ولا ينقل العلم إلى العمل إلا التربية الروحية الصوفية المخلصة فإذا تفرغ القلب من كل أدرانه وطهر وسما ثم جاء العلم والإيمان مع الذكر والتربية الروحية الكاملة وتمت عملية التزكية عند ذلك تحل أزمتنا الاجتماعية والعلمية والأخلاقية والاقتصادية

والسياسية والدولية، ونحقق السلام العالمي في عصرنا الحاضر.

وإن الذكر لله في بداية سلوك تربية الروح للمسلم مطلوب ومشار إليه في آيات كثيرة، فإذا حصل للقلب التوله بالله والحب الصادق، صارت صلاته ذكراً وورداً، فمن صلحت صلاته من التكبيرة إلى التسليم فلا يحتاج بعدها إلى ورد زائد عن الأوراد المأثورة لأن الصلاة الحقيقية التي وصل إليها السالك في طريق الله هي أسمى الغايات، وهي الشحنة النورانية التي تمده بين وقت وآخر ليبقى في صلة دائمة بالله عز وجل، فإذا استيقظ في الفجر بدأ صلاته ثم جلس يذكر الله، ثم ينتقل إلى عمله، وإذا جاء الظهر ارتبط قلبه مرة ثانية بربه، ثم العصر يزداد توهجاً وإنابة، ثم المغرب فالعشاء، وإذا حصل القلب على القرب من الله لم يستطع نوم الليل كله، بل لابد له من مناجاة ربه بالتهجد والقيام والدعاء والتضرع والإنابة والاستغفار، فهذا هو الغذاء الحقيقي لروحه طوال النهار، ولكن من وصل إلى هذه الصلاة ؟ وكيف يحصل على صلاة ركعتين لم يحدث بهما نفسه ؟ حتى قال بعض الذين لم يحصل لهم هذا الذوق والتجلي على رغم عملهم، واطلاعهم، وبحثهم، لا يمكن للإنسان أن يصلي ركعتين لا يحدث بهما نفسه. ولكن أنى لهم هذا المقام الذي هو مقام الإحسان، وقد وصل إليه كثير من السالكين، وما أكثر من حصل له هذا الحال. وقد قال لي أحد العلماء عندما سألته لماذا تتعجل في قراءة الفاتحة ؟ قال: أما مللت منها يا أخي، وهو القائل بأنه ليس لمرء أن يصلي صلاة لا يحدث بها نفسه. وقال أحدهم: (والنفس إذا طغت كالعدو إذا طغى، فيجب مجاهدتها والاستعانة عليها بمن يردها إلى الصواب من أهل الرشد والإرشاد)[1].

---

(١) معالم الطريق إلى الله للشيخ محمد أبو الفيض المنوفي.

وقال أبو سعيد الخراز:

(إذا أراد الله تعالى أن يوالي عبداً من عبيدة فتح عليه باب ذكره، وإذا استلذ بالذكر فتح عليه باب القرب، ثم رفعه إلى مجالس الأنس به، ثم أجلسه على كرسي التوحيد، ثم رفع عنه الحجب وأدخله دار الفردانية، وكشف له من الجلال والعظمة، فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقي بلا هوى، حينئذ صار العبد زمناً فانياً فوقع في حفظه سبحانه وبرىء من دعاوى نفسه)[1].

ويقول أبو بكر الكناني[2]: (التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف).

* * *

(١) الرسالة القشيرية ص ١١٨.

(٢) كتاب التمكين في شرح منازل السائرين ص ٤٣.

حقائق التربية الروحية القرآنية
ومراحل تكوينها

حقائق التربية الروحية القرآنية
ومراحل تكوينها

بعد مناقشة الباب الأول حول التربية الروحية القرآنية ودراستنا للآيات القرآنية المتناثرة في كتاب الله حول هذه التربية الروحية وأهميتها، وكيف كان النَّبي ﷺ في غار حراء، وموسى عليه السلام في الصحراء، وأهل الكهف، وهذا ما أكسبهم قوة روحية قادرة على التلقي والكشف الروحي، لهذا كله دعا مجموعة من علماء التربية الروحية إلى الاهتمام بالطرق والوسائل المؤدية إلى هذه التربية، فسلكوا طرقاً عدة ليحققوا النتائج المطلوبة في إعداد المؤمن ليرتقي إلى مقام الإحسان الذي هو غاية الغايات ونهاية المطاف في مدارج السالكين، فمراحل التربية الروحية التي يمر فيها السالك إلى مقامات وأحوال مختلفة هي ما يلي:

أولاً: التوبة

السالك في طريق التربية الروحية لابد له من مقام يبدأ به وهو التوبة؛ وهو أول المقامات في سلم الوصول إلى الله ومرضاته، ويسبق التوبة شعور يغمر نفسه بحاجته إلى التوقف عن المعاصي والآثام، والاستغفار من كل ما ارتكبه والندم والإقلاع عن الذنوب.

وشروط التوبة:

١ـ الندم وهو اليقظة الروحية والانتباه المقرون بشعور بالألم النفسي.

٢ـ العزم الصادق على ترك المعاصي والآثام مع الاستغفار اللساني والقلبي وذلك في الحال والمستقبل.

٣ـ تصفية حقوق الناس المادية والمعنوية.

ثانياً: الإخلاص في سلوك الطريق

وهي العزيمة الصادقة المقرونة بالعمل الجاد، والهمة العالية، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[1].

والإخلاص وسيلة هامة يحتاج إليها السالك؛ لأن السلوك التربوي لا يمكن أن يحيط به شيء، ولا يدفع السالك إلى العمل المستمر والمجاهدة والتزكية ومحاسبة النفس إلا دافع واحد وهو الإخلاص، وما تخطى العارفون بالله حجب الظلمة إلى الكشف الروحي إلابفضل الإخلاص، وقد أفردنا لهذا بحثاً كاملاً لأهميته.

ثالثاً: الخلوة بعد البيعة

إن المؤمن الذي أقلع عن الذنوب وتاب توبة نصوحاً وأخلص دينه لله يحتاج إلى مرحلة يطهر فيها نفسه ويزكيها، وهذه هي بداية طريق السالكين، فالرسول عليه الصلاة والسلام مكث في الغار الأشهر ذوات العدد، وقال

---

(١) سورة البينة: ٥.

تعالى عن سيدنا موسى: ﴿ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾[1] فالخلوة مرحلة ضرورية لتتجمع طاقات النفس، وهي جزء من الاعتكاف؛ والاعتكاف سنة. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رجل: أي الناس أفضل يارسول الله ؟ قال: «مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله» قال: ثم من ؟ قال: «رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه»[2]. وهذا الحديث يؤيد المرحلة التكوينية لبداية السالكين، وذلك لأن أحاديث الاختلاط كثيرة؛ وهي المرحلة التي يقوى فيها المسلم، ويستطيع أن يتعايش مع الناس، ويصبر على أذاهم ولا يتأثر بهم، وهي المرحلة التي يكون فيها قد تعمقت شعب الإيمان في نفسه فهو يؤثر ولا يتأثر، ويدل الناس على الخير ولا يتأثر بشرهم.

والغاية من الخلوة أن يكون خالياً من الوساوس والهم؛ متفرغاً للأذكار والعبادة. وقد اهتم بعض علماء التربية الروحية بالخلوة أربعين يوماً، وهذا من منطلق الحديث: «من أخلص لله أربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[3]. وهناك خلوة وهي العزلة النفسية والعزلة الشعورية وهي المطلوبة، فالعزلة الشعورية عن هموم المجتمع وهموم الدنيا هي المطلوبة في طريق السالكين ليجمّع السالك طاقات نفسه، ويهذبها ويزكيها ويقتلع منها جميع الأمراض النفسية التي كان يحملها في جنباتها، ولذا كان الصحابة يقومون الليل. وصلاة قيام الليل هي التي تهيء النفس لتلقي رحمات الله وتجلياته. أما سمعنا حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام: «لي ساعة مع

---

(١) سورة البقرة: ٥١.

(٢) متفق عليه.

(٣) حديث فيه أقوال تضعفه، ورواه أحمد وابن عباس، انظر كشف الخفا للعجلوني: ٢/٢٤٢.

ربي لا يسعني فيها نبي مرسل ولا ملك مقرب»[1]. وكان صلوات الله عليه يتوج كل عام جهاده الروحي المتصل بشهر يقضيه في غار حراء؛ حيث الخلوة التامة، وحيث التجرد المطلق أو شبه المطلق عن كل ما سوى الله، وهناك في سترة الليل؛ أو في رابعة النهار، يحاول محمد عليه الصلاة والسلام أن يحطم الحجب، وأن يخترق الستائر، وأن ينفذ ببصيرته إلى عالم الغيب، وتمضي السنون بطيئة سريعة في آن واحد، وجهاده ﷺ لا يفتر حتى أصبح أو كاد روحاً خالصاً، أو قبساً من نور الله، يقول الغزالي: (أول حال رسول الله عليه الصلاة والسلام حين أقبل على جبل حراء حيث تبتل، حين كان يخلو فيه بربه ويتعبد، وحبَّبَ الله تعالى إليه الخلوة)[2].

ويقول الدكتور هيكل: وجد محمد ﷺ في التحنث خير ما يمكنه من الإمعان فيما شغلت نفسه من تفكير، وتأمل؛ كما وجد فيه طمأنينة نفسه، وشفاء شغفه بالوحدة، يلتمس أثناءها الوسيلة إلى ما لم يبرح شوقه يشتد إليه، ولقد كان يشتد به التأمل ابتغاء الحقيقة حتى لقد كان ينسى طعامه وينسى كل ما في الحياة، لأن هذا الذي يرى في حياة الناس مما حوله ليس حقاً.

إن السالكين في التربية الروحية القرآنية هم رجال لهم ذوق ووجدان، وحب لله وحنين إلى المعرفة، فالواحد منهم دائب الفكر، كثير الذكر، غزير الحلم، محب للعلم، كاره للجدل قليل المنازعة، سهل المراجعة، همته عالية، وعزيمته صادقة، أوسع الناس صدراً وأقبلهم لهم عذراً، وألينهم للحق انقياداً، إذا ضحك تبسم، وإذا غضب لا يتجهم، وإن تجهم فهو

---

(١) رواه الترمذي في شمائله، وابن راهويه في مسنده، انظر كشف الخفا: ٣/ ١٤٥، والموضوعات لابن الجوزي ص ١٧٣.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ص ٢٣٤.

رؤوف بمن يعاديه، وصول لمن يواليه، وفيٌّ لمن صادقه لا يخوض بما لا يعنيه، ولا يدعي أبداً ما ليس فيه، ورع عن الشبهات، مبغض للمحرمات، حافظ للأوقات، حياؤه في وجهه، وخوفه من الله رابض على قلبه، مع الطمع في عفوه والرجاء لرحمته، حافظ للأمانة، بعيد عن الخيانة، طبعه الحياء ودأبه الوفاء، غير حاسد ولا غادر ولا عياب ولا مغتاب، دائم الحركة لما يغلي في صدره، عفيف المكسب، يرغب في الخيرات، فأنى للإنسان أن يصل إلى هذه الأخلاق إلا بالمجاهدة والإرادة والإيمان اليقيني الصادق ؟ وهذه أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام؛ فهل المتخلق بها يسمى صوفياً أو يسمى مؤمناً تزكت روحه، وسمت نفسه، وتهذبت أخلاقه، وهذا ما نريده. فلندع ذلك الاسم والمسمى، ولنعد إلى القرآن دستور التربية الكامل؛ وإلى السنة منهج التربية الروحية السليم، ولندع الشطحات وما خالف طريق الكتاب والسنة ففيهما النجاة والسعادة.

* * *

الوسائل التي اتبعها
علماء التربية الروحية

الوسائل التي اتبعها علماء التربية الروحية

لقد عمل علماء التربية الروحية بأصول الشريعة وحقائقها؛ ووصفوا أسس التربية الروحية وتزكية النفس:

أولها: العلم بالله ومعرفته والتقرب إليه بالطاعات.

ثانياً: الإكثار من ذكر الله تعالى، واتباع المأثور من الأذكار والدعاء حتى يطهر القلب ويطمئن بالله تعالى.

ثالثاً: مخالفة النفس بترك المعاصي والغفلات.

قال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: (إذا اعتقدت النفوس ترك الآثام، جالت في الملكوت، ورجعت إلى صاحبها بطرائف الحكمة، من غير أن يؤدي إليها عالم علماً، ورياضة النفس تمرينها لإثبات حسن الخلق ودفع سيئها).

رابعاً: الخلوة والاعتكاف وخاصة في بداية السلوك؛ حتى تتجرد النفس من الحجب ليكشف لها عالم الملكوت أو لتصل إلى رقائق النفس فتطهر من الظلمة، ويمتلىء القلب بالنور الإلهي فتقوى الإرادة، وتسهل الطاعة، ويزداد البذل والعطاء، وإذا رق حجاب النفس سلكت مسالك الكمال واليقين.

خامساً: الحياة مع الصادقين من عباد الله المخلصين ﴿وكونوا مع الصادقين﴾ وهي الحياة المخلصة مع العارفين بالله، وقصة موسى عليه السلام مع الخضر هي الأسوة التي اتخذها السالكون إلى الله تعالى ليتحقق لهم المقصود.

سادساً: الاستقامة.

سابعاً: الإحسان

الإحسان أعلى درجات الإسلام والإيمان واليقين، وهو مستمد من حديث الرسول ﷺ الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النَّبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه ثم قال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً» قال: صدقت.

قال عمر: فعجبنا له يسأله ويصدقه.

قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره» قال: صدقت.

قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

---

(١) متفق عليه.

فبعد الإسلام الذي هو استسلام لله عقلاً وقلباً، يأتي الإيمان الذي هو الاعتقاد الجازم فكراً وروحاً، ثم يأتي مقام الإحسان؛ وهو العبادة مع المشاهدة والمكاشفة، فإن لم تصل إلى هذه الدرجة بتقصير منك، فشرطها أن تعبد الله على حال الخوف والمراقبة، وذلك باستشعار اطلاعه على سريرتك وعلانيتك لأنه يراك. وقد قسمها العلماء إلى مرتبتين: الشهود، والتقوى.

ولذا نجد أن الإحسان هو تحقق كمال العبودية، ومن صبر على المراقبة الكاملة لله مع التقوى، وجاهد نفسه بالله، اهتدى إلى نور البصيرة؛ وتحصل هذه بالمداومة على ذكر الله، والإنابة والتوبة الصادقة، والتفكر بآلاء الله دائماً، ولذا قال الصدِّيق: ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[1]، وهذه المعية هي معية العلم والرحمة والرضا، وهي أعلى مقام اليقين.

فيا أخي المؤمن؛ هل حصلت على مقام الإحسان ؟ وهل كنت مع الله في صلاتك وسائر عباداتك ؟ وهل حصلت على القلب الذي يرى الله رؤية البصيرة ؟

وهل تخاطب الله في صلاتك وأثناء تلاوتك ﴿إياك نعبد﴾ وفيها كاف الخطاب، فإن كنت في صلاتك شارد الفكر، مضطرب النفس، فكيف حالك بعد الصلاة ؟

والصلاة معراج المؤمن إلى معرفة الله ومحبته ورضاه ومناجاته.

فاسلك طريق المحبين والمنيبين، وجاهد نفسك، وكن مع المخلصين

---

(١) سورة العنكبوت: ٦٩.

لتصل إلى حقيقة الإحسان؛ لتعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن قد وصلت إلى هذه المرتبة فاستشعر في نفسك أنه يراك.

فإن لم تستطع أن تصل إلى هاتين المرتبتين فأنت في بداية الطريق، ولابد لك من عارف بالله يربي نفسك ويزكيها، ومن ثم تسلك طريق الوصول إلى هذه المراتب.

فهل هذا الحديث عن الإحسان من التصوف أو من النبوة ؟ فأنت أيها الفقيه والمحدث والعالم والقارىء؛ هل سلكت طريق هذا الحديث ؟ أو أنك تركته لأن الصوفية قد سلكوه وعلقوا عليه كثير الآمال، ووضعوه نصب أعينهم، ولأنك ترى التصوف انحرافاً عن الكتاب والسنة ؟!.

فالإحسان مسلك الأنبياء، وطريق الصديقين، ونتيجة الإخلاص، وعنوان القبول، فكر واعمل وأخلص وتب من تقصيرك واعبد الله حق العبودية بالأعضاء والأعمال والقلب والشعور والإحساس والمراقبة.

والمراقبة هي دوام معرفة العبد بأن الله مطلع على ظاهره وباطنه؛ ناظر إليه، سامع لقوله، ولذا قيل: من راقب الله في خواطره عصمه في حركات جوارحه.

وقال ذو النون: (علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظم الله، وتصغير ما صغر الله).

* * *